

انتصارات إسلامية

معركة الزلاقة.. نجم مضيء في ليل الأندلس

بقيت الأندلس في القرن الخامس الهجري تنن تحت وطأة الفرقة والانهزام، حتى كانت موقعة الزلاقة معركة فاصلة أعادت للأندلس هيبتها وردت المكائد الصليبية في نحرها، وكانت هذه المعركة في التاسع من شهر رمضان سنة 479، وبعض المراجع التاريخية ترجح أنها كانت في الثاني عشر من شهر رجب، «ينظر: «جميل المصري: الزلاقة من معارك الإسلام الحاسمة، وفيات الأعيان: 29/5، وغيرها».

ما قبل الزلاقة

شهد القرن الخامس الهجري سوء أحوال الأندلس، التي كانت مفككة يحكمها ملوك الطوائف ويتآمر بعضهم على بعض، ولو كان ذلك بالتعاون مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، الذي استغل تلك الفرقة في الإيقاع بين حكام الأندلس، لدرجة أنه صار يأخذ منهم الضريبة والاتاوات حتى يستنفذ طاقتهم، مقابل حمايته لهم من اخوتهم المسلمين.

سقوط طليطلة

هي من أهم المدن الأندلسية، تتوسط شبه الجزيرة تقريباً، وبالتالي أصبحت مطعماً لأمال ألفونسو السادس، وخاصة أن حال المدينة كانت سيئة جداً على عهد ملوكها من الطوائف، وهم أسرة ذي النون. دبر ألفونسو خطته لغزو المدينة، وأرهب ملوك الطوائف الآخرين بتوعدهم أن قاموا بنجدها، وحاصرها حتى اضطرها إلى التسليم. وسقطت طليطلة بأيدي ألفونسو السادس، ونقل إليها عاصمة ملكه، واستتبعت سقوطها استيلاء الإسبان على سائر أراضي مملكة طليطلة. أطمع ذلك ألفونسو بباقي ممالك

الطوائف، وانتثت أحلامه بالقبض عليها الواحدة بعد الأخرى، وتجرّب عليهم، وعلا وطغى، نقض عهوده التي كان قد قطعها لأهل طليطلة، وحول مسجد طليطلة إلى كنيسة بقوة السلاح.

تماد وأطماع

بدأ ألفونسو في تنفيذ خطته بالايغال في اذلال الطوائف، وخاصة المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأشدهم بأساً. حيث أراد أن يعين في اذلاله كأقوى أمراء الطوائف، فأرسل إليه رسالة يطلب فيها السماح لزوجته بالوضع في جامع قرطبة وفق تعليمات



الأندلس بسبب ازدياد عنف ألفونسو، ورغم كل التحذيرات التي وجهت إلى المعتمد بن عباد، وتخوفه من طمع المرابطين في بلاد الأندلس، إلا أن الفخوة الإسلامية استيقظت في نفسه، فأضّر على الاستنجاد بالمرابطين، وقال قولته الشهيرة: «لأن أكون راعي جمال في صحراء أفريقية خير من أن أكون راعي خنازير في بيداء قشتالة».

الاستنجاد بالمرابطين

تعالّت الأصوات في الأندلس تطالب بالاستنجاد بالمرابطين، وخاصة المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأشدهم بأساً. عبرت جيوش المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين ثم تحركت العساكر إلى الشيبيلية، واستقر أياماً في الشيبيلية للراحة، ثم

بلاد في القرآن

أهلها كذبوا الرسل رغم الآيات البينات

أنطاكية أول مدينة أرسل لها المسيح حواريه فقال أهلها إنا تطيرنا بكم



حصون انطاكية قبل تلاحياها

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون اتخذ من بونه الهة إن يردن الرحمن بضعاً لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينذونني إذا لفي ضلال مبين، أتني أمثنت بربكم فأسمعون» قبل الدخّل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين»، «يس: 20-27».

يقول الدكتور عبدالله سمك - أستاذ المذاهب والأديان بجامعة الأزهر: المفسرون على أن المدينة المقصودة في تلك الآيات الكريمة هي مدينة أنطاكية التي كان يسوع المسيح قد بعث فيها أتباعه، وكانوا يؤمنون بالتطير. وقد كان ذلك في زمن النبي عيسى عليه السلام، فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين من الحواريين المقربين له ليرشدهما إلى صراط الله المستقيم ويقدمهما من الضلال. وبعد أن صار الحواريان قرييين من المدينة شاهداً شيخاً يرعى غنماهم، وكان اسمه حبيب النجار، فقال له: السلام عليك أيها الشيخ الكريم. فقال: وعليكم السلام. من أنتما؟ فقال له: نحن رسولاً نبي الله عيسى، جئنا لدعوتك إلى عبادة الرحمن وترك عبادة الأوثان. فقال الشيخ: كيف ممكناً آية «لليل أو علامة» تثبت ما تدعيانه؟ قال: نعم. فنحن نشفي المريض ونبرئ الأكمة والأبرص بإذن الله. فقال: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين وهو يرقد في الفراش. فقال له: انطلق بنا إلى منزلك لئراه. فذهب بهما وأدخلهما منزله، فاقتربا من ابنه ومسحا وجهه وجسده وذكرنا الله فقال الابن من دون علة بإذن الله. فانتشر الخبر في المدينة، ولكن أهل القرية كذبوا الرسولين. وبعث عيسى رسولاً ثالثاً وأيضاً كذبوه وقالوا إن النبوة لا ينالها أحد من البشر. إن انتم إلا كاذبون، فقال قوم من الكافرين: نحن نشاءمنا منكم ونحن في شك من أمركم، وإذا لم تتوقفوا عن دعواكم سنضربكم بالحجارة وسنصيبيكم منا عذاب شديد فقال لهم الرسل: تشاؤمكم معكم وأنتم قوم مسرفون ضالون.

ملك المدينة

ووصل خير الرسل إلى ملك المدينة وكان يعبد الأصنام. فأمر بإحراقهم، فقال لهم من أنتما؟ قالوا: نحن رسل عيسى جئنا ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر.

فقال الملك: وهل لنا إله غير ألهتنا؟ فقالوا: نعم. وهو الذي أوجدك وأوجد أهلك. فقال الملك غضباً: قوموا حتى أنظر في أمركم. فأخذهم الناس إلى السوق بعد أن ضربوهم وحبسوهم في معبد الأصنام، وأجعدوا على قتلهم رغم جميع الآيات والمعجزات التي أتوا بها.

ولما بلغ ذلك حبيب النجار وكان يبكي بكاءً شديداً، جاء يسوع مسرعاً إليهم وينادي بأهل المدينة أن يطيعوا الله وأن يصدقوا الرسل ويتبعوهم. ألم يستمع كلامه أهل القرية ونقموا منه وضربوه وقتلوه فرعه الله تعالى وأدخله الجنة. فقال: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. وبعد ذلك أنزل الله تعالى عذابه على أهل هذه القرية فأحرقها وخرّب جميع الجبل يتألف منه إكليل بها.

وكان الشكل غريب المنظر. وبعث لسور أنطاكية قديماً 360 برجاً يطوف عليها «بالتناوب» أربعة آلاف حارس، كان ينفذهم ملك القسطنطينية. ويضيف د. سمك: ولقد كانت مدينة أنطاكية من مدن الشام التي شملها الفتح الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-، وقد فتحها المسلمون عقب معركة اليرموك بقيادة أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه-، وظلت هذه المدينة بأيدي المسلمين إلى أن بدأت الحملات الصليبية على بلاد الإسلام سنة 491هـ. فكانت من أوائل المدن التي سقطت في قبضة الصليبيين مدينة أنطاكية، وذلك ذلك الزمان من حيث الثروة والعلم والتجارة وأخذت أنطاكية تعظم وتزاد حتى فاقت جميع البلدان سوى روما والقسطنطينية، وبلغ سكانها في عهد السلوقيين «700 ألف نسمة». وانتهت للحياة القصوى من الجمال وحسن الموقع وعظم التاريخ وكثرة التماثيل والأثار، وانفردت بزراعة المياه.

كتبة الوحي

فاتح أفريقيا وباني أسطول المسلمين

عبد الله بن أبي سرح أول كاتب للوحي بمكة



الصحابي عبد الله بن سعد ابن أبي سرح كاتب الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان أميراً وقائداً على الجيوش التي فتحت أفريقيا، وإدارياً بارعاً تولى بناء وقيادة أول أسطول إسلامي أنهى سيطرة الدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط. ويقول الدكتور عبد الله بركات، الأستاذ بجامعة الأزهر، هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن عامر بن لؤي القرشي، وكنته أبو يحيى، أخو عثمان بن عفان من الرضاة، حيث أرضعته أم عثمان، وأسلم قبل صلح الحديبية وهاجر. وكان حسن الإسلام لم يتعد ولا فعل ما ينقم عليه بعد إسلامه، وكان أحد عقلاء الرجال وأجودهم، وموضع ثقة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فاستعمله في كتابة الكتب والعهود، ومنحه شرف كتابة الوحي القرآني. قال ابن حجر: «كتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة وكان أول من كتب له من قريش بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح».

وذكرت التراجم أنه فتن وأردت مشركاً ولحق بكفار قريش، وروى عن ابن عباس قال: «كان ابن أبي سرح يكتب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأزله الشيطان، فلقح بالكفار»، ولما كان عام فتح مكة أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقتله، ولو وجد متمسكاً بأسنان الكعبة. واختبا عند عثمان بن عفان، فلما دعا الرسول، صلى الله عليه وسلم، الناس إلى البيعة يوم الفتح جاء به عثمان، رضي الله عنه، حتى أوقفه على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله بايع عبد الله. فرفع الرسول، صلى الله عليه وسلم، رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى مصافحته، صلى الله عليه وسلم، فأمنه، وعفا عنه، وبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، صلى الله عليه وسلم، فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومات لبنا بعينك؟ فقال: «إنه لا ينبغي أن يكون لبني خاتمة أعين»، فأسلم ابن أبي سرح بعد ذلك وحسن إسلامه، وقال الدارقطني: «أردت، فأهدر النبي دمه»، وقال مصعب بن عبد الله: «استأمن عثمان لابن أبي سرح يوم الفتح من النبي، صلى الله عليه وسلم، وكان أمر بقتله».

وقيل إنه لما أخذ المشركون، وأكروهه على ما أكرهوا عليه عمار بن ياسر، رضي الله عنه، أجابهم إلى ذلك معتقداً، فأكرموه، وكان معهم إلى أن فتح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مكة، ثم استأمن له عثمان فأمنه النبي، صلى الله عليه وسلم، وتاب بعد ذلك وأسلم وحسن إسلامه، وأصبح أحد العقلاء الكرماء، وكان له صحة ورواية حديث روى عنه الهيثم بن شفي.

وبينت كتب السير الثقات أن إهدار دمه كان نتيجة لارتداده، وليس لادعائه على الله تعالى وتحريف ما كان يكتبه وإدعائه على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولو كان ذلك ما كان للنبي أن يقبل منه عذراً ولا شفيحاً وما كان لعثمان ذلك، وما كان للخلفاء الثلاثة من بعده أن يستعملوه ويتقوا به لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، أهدر دم من نال منه بالهزاء فكيف من ينال من الله ورسوله وآيات الله ويعدى هذا الادعاء، إذ لا توجد رواية صحيحة الإسناد تؤكد أن عبد الله بن أبي سرح كان يحرف الوحي وكل ما روي في ذلك مرسل وخبر ضعيف الإسناد ليس صحيحاً بأكثر من وجه، ولم يأت هذا الخبر في كتاب واحد من كتب السنة لا بطريق صحيح ولا ضعيف ويخلط كثيرون بين عبد الله بن سعد بن أبي سرح وشخصية ثمانية ارتدت أيضاً في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، والأمر الذي أدى إلى هذا الخلط هو اشتراكهما في كتابة الوحي، ووقوع الردة منهما، إلا أن الحقيقة أنهما شخصيتان مختلفتان، فالصحابي الجليل عبد الله بن أبي سرح ظهرت براءته من هذه التهمة، والثاني هو رجل نصراني لا يعرف اسمه ارتد وبقى على رده ونزع أنه كان يغير في كتابة الوحي ومات ولفظته الأرض وكان آية للناس.

عقب انتقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى جوار ربه، شارك عبد الله في الفتح والجهاد في سبيل الله تعالى وعرف بالشجاعة والإقدام والصبر في المعارك، وولاه عثمان بن عفان في خلافته إمارة الصعيد بمصر، ثم ولي مصر كلها في سنة 27 هـ، وكان محمداً وظهرت براعته الإدارية في تنظيم الخراج، وذكر الواقدي: «كان عمرو بن العاص على مصر لعثمان فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة والجدد واستعمل عبد الله ابن أبي سرح على الخراج فتداعيا، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان إن عمراً كسر الخراج عليّ وكتب عمرو إن ابن سعد كسر عليّ مكيدة الحرب فعزل عمراً. وأضاف الخراج إلى ابن أبي سرح، وفي مدة ولايته فتح فتوحا عظيمة في بلاد النوبة والسودان سنة 31 هـ، وعقد عهداً بينه وبين ملك النوبة بأن يؤمن التجار ويحافظ على المسجد الذي بناه المسلمون في دنقلة، وتوسعت فتوحاته حتى بلغت تونس في سنة 33 هـ، وتولى بناء وقيادة الأسطول الإسلامي الذي كان يتألف من مئتي سفينة، وتصدى للحملة البحرية الكبرى التي قادها قسطنطين الثاني في محاولة للاستيلاء على الإسكندرية واسترداد مصر من العرب، وانتصر على البيزنطيين وأغرق 900 سفينة في معركة ذات الصواري، التي منتهت نهاية سيطرة الدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط.

اعتزال السياسة والنجاح من الفتنة

بعد استنهاد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - اعتزل عبد الله بن سعد السياسة ونجا بنفسه من الفتنة، وخرج إلى عسقلان فظل فيها عبداً، قال مصعب: «هو الذي فتح إفريقية وأنزوى إلى الرملة في فلسطين»، وقال ابن يونس: «كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص، وكان فارس بني عامر المعدود فيهم. غزا إفريقية، ونزل عسقلان، فلم يبايع علياً ولا معاوية»، وفي آخر أيامه كان يدعو الله تعالى أن يكون آخر عمله عند الصبح، وذهب يسلم عن يساره فقبض الله يوم وفاته قال: «إني لأجد برد الصبح، اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح»، فتوفاً. ثم صلى، فقرأ في الأولى بأم القرآن والعابديات، ثم ختم الصلاة وسلم عن يمينه، وذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه - رضي الله عنه - في سنة 37 هـ، وقيل في سنة 59 هـ، وقيل إنه دفن بمدينة أوجلة في ليبيا.